AL HIKMAH RESEARCH & PUBLICATION CENTRE
Al-hikmah International Journal of Islamic Studies and Human Sciences
Volume 4, Number 4, December 2021

مجلة الحكمة العالمية
للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية
العدد 4، الرقم 4، ديسمبر 2021
E-ISSN 2637-0581
https://doi.org/10.46722/hkmh.4.4.21m

القاضي عياض ومنهجه في دراسة الحديث الشريف: "كتاب بغية الرائد لما تضمّن حديث أم زرع من الفوائد" نموذجا

Al-Qāḍī ‘Iyāḍ and His Method in Studying the Noble Hadith: “A Book with Bughyah Al-Ra’id Lima Tadammanahu Hadith Ummi Zar’ min al-Fawa’id The Pioneer Endeavour for Benefits in Ummi Zar’s Report”: As an Example

Riahi Mohamed Kais
International Islamic University Malaysia
moulwi.kais@gmail.com
Mohammed Abullais Shamsuddin Mohammed Yaqub
International Islamic University Malaysia
malais@iium.edu.my
Mohammed Farid Ali
International Islamic University Malaysia
abumariyah@iium.edu.my

ملخص

يعتبر شرح القاضي عياض لحديث أم زرع من أنفس الشروحات والمعتمد من قبل العلماء والدارسين الأولين والمتأخرين. ويهدف هذا البحث إلى بيان المنهج الذي وظفه القاضي عياض في دراسة الحديث الشريف من خلال شرحه "بغية الرائد لما تضمّن حديث أم زرع من الفوائد". وقد اعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي في التعريف بالقاضي عياض وجهوده في هذا الشرح، والمنهج التحليلي من أجل إبراز منهجية القاضي المبتكرة، التي ميزت هذا الشرح عن غيره. وتوصل البحث إلى أن القاضي عياض قد أسس لقواعد منهج جديد في التعامل مع النص الديني، يقوم على الشمولية والتكامل، وهو ما يفسر استخراجه لكم هائل من المسائل الفقهية والعربية، مع تحقيقات فريدة وإشارات بديعة.

الكلمات المفتاحية: لقاضي عياض، المنهج، علم الحديث، حديث أم زرع.

Abstract

Al-Qāḍī ‘Iyāḍ’s explanation of the hadith of Ummi Zara’ is considered one of the most authentic explanations and was approved by the early and later scholars. The aim of this research is to clarify the method employed by Al-Qāḍī ‘Iyāḍ in the study of the noble hadith through his explanation “Bughyah al-Ra’id Lima Tadammanahu Hadith Ummi Zar’ min al-Fawa’id”. The researcher relied

on the inductive approach in introducing Al-Qāḍī ʻIyāḍ and his efforts in this explanation, and the analytical approach in order to highlight Al-Qāḍī ʻIyāḍ's innovative methodology, which distinguished this explanation from others. The research concluded that Al-Qāḍī ʻIyāḍ established the rules of a new approach in dealing with the religious text, based on comprehensiveness and integration, which explains his extraction of a huge number of jurisprudential and Arabic issues, with unique investigations and wonderful references.

Keywords: Al-Qāḍī ʻIyāḍ, Approach, Hadith science, Hadith of Umm Zara'.

تمهيد

في القرن الرابع الهجري، ظهر أعلام تساق إليهم الواحدات النجائب، برزوا بنباهتهم وإضافاتهم لصناعة الحديث من بينهم القاضي عياض. الذي ساهم في إكمال معالم مدرسة الحديث بالغرب الإسلامي بتقحم هذا المجال والزج بسية قوسه في هذا النضال، وقد ساعده في ذلك بلوغ ساعد ذهنه كمال الفتوة، فاستظهر اللواطف الحضيضة، واستخرج من الزوايا الخفايا، وهو دليل تبصره بمعاطفها، فسارت الركبان بتآليفه مشارق الأرض ومغاربها، لحلاوة مقاطعها، ونفاسة منازعها، وعذوبة مشارعها. وكتابه "بغية الرائد لما تضمن حديث أم زرع من الفوائد"، وهو محل هذه الدراسة، خير دليل وشاهد على تفننه وبراعته، وبلوغه الغاية والغنية العلمية.

سيعمل الباحث من خلال هذه الدراسة على إبراز وإظهار كل ما ميّز هذا الشرح عن غيره، سواء من المنهجية التي أسس لقواعدها القاضي عياض، والقائمة على النقد البناء، والتحقيق العلمي الغير منحاز، وحسن الترتيب، مع فضيلة التوسع عند الإقتضاء وتوليد المسائل العلمية في شتى الميادين المعرفية، كما يعتبر هذا الشرح أيقونة في بابه، حيث تعرض بطريقة عملية مبتكرة لأبواب البلاغة التي يزخر بها نص الحديث.

ولم ير الباحث فائدةً من إطالة المقال في هذا البحث وحشوه بالمعلومات من مختلف المصادر، بقدر ما أراد تحقيق بعض المسائل التي بقيت معلقة دون توضيح، وإيراد معلومات يراها جديدةً، ولم تذكر فيما رجع إليه من مصادر، دون دعوى السبق والتفرد.

المبحث الأول: التعريف بالقاضي عياض

المطلب الأول: اسمه

القاضي أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض، اليحصبي، السبتي (Ibn ʿIyāḍ, 1982).

المطلب الثاني: مولده

لم تختلف مصادر ترجمة القاضي عياض في هذه المسألة، حيث اتفق الجميع على أنه ولد بمدينة سبتة من بلاد المغرب الأقصى في النصف من شهر شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة هجرية، الموافق لـ28 ديسمبر 1083م. وذلك لأن ولده محمد قال في كتابه "التعريف بالقاضي عياض" ما نصه: "فيما رأيت بخطه" (Ibn ʿIyāḍ, 1982).

المطلب الثالث: نشأته

يتبيّن من الوهلة الأولى للباحث أو المطالع لترجمة القاضي عياض في مختلف المصادر التي ذكرته أنه توفرت له كل العوامل المناسبة لنشأة واعدة، وهو أمر لا يتوفر غالبا إلّا لآحاد من الناس. ومن هنا كانت نشأته كما قال عنه ولده محمد: "على عفة وصيانة، مرضيّ الخلال، محمود الأقوال والأفعال" (Ibn ʿIyāḍ, 1982).

كما تجدر الإشارة إلى عدة عوامل أخرى ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في صقل موهبته وتنمية شخصيته، وبالمجمل، وبعد نظرة استقرائية يمكن حصر هذه العوامل في ثلاث نقاط كالتالي:

أ– المحضن الإجتماعي: والمقصود به عائلته القريبة، فلا شك أنه كان سليل عائلة عريقة موسومة بالشرف والفضل والعفة، فقد ورث المال والجاه من عائلة أبيه، وورث العلم والدين والصلاح من عائلة أمه، فقد كان جده لأمه مهتما بالعلم (Ibn-Baškuwāl,1989)، وكذلك خاله أبو محمد عبد الله (Ibn-Baškuwāl,1989)، الذي كان من أهل الفقه والوثائق، وكتب للقضاة بسبتة، وأما خاله أبو بكر محمد (Ibn-Baškuwāl,1989)، المعروف بابن الجوزي، فكان من أصحاب التصانيف، حيث ألف في التفسير والتوحيد، وكان متفننًا في العلوم ومن المعدودين في أهل البلاغة والشعر.

كما كان لمسجد أسرته الذي بناه وأوقفه جده الأعلى عمرون بالغ الأثر على الناحية الأخلاقية والتعبدية للقاضي لعياض، فمع التزام الصّلاة فيه منذ نعومة أظفاره، توجه إلى تحصيل فضائل الأخلاق.

ب– المحضن البيئي: والمقصود به مدينة سبتة أين ولد ونشأ، فقد كانت مركزًا علميًّا، تزخر بالعلماء سواء من أهلها أو من الوافدين إليها أو من العابرين منها، حيث إنها كانت المعبر الوحيد إلى الأندلس. ومعلوم أن وجود العلماء له تأثير على المناخ العام للنسيج المجتمعي، وأحد الآثار العامة المحمودة توجه رغبة العامة إلى طلب العلم الذي هو الأساس الأول لترويض النفوس وتهذيبها وتزكيتها على النهج الصحيح، وكان عياض أحد الذين نهلوا من هذا المعين واستفادوا منه.

كما كانت مدينة سبتة معقلا للعبّاد والمجاهدين، فكان لزحف جيوش المرابطين لتوطيد سلطانهم مع ارتباط ذلك بهدف سام وهو إرساء قواعد الدين من العوامل التي تركت أثرها على شخصية عياض الذي حمل الراية بعد ذلك منافحا ومدافعا عن عقيدته وعن أهل بلده ضد الموحدين (Ibn al-Atheer,2003).

ج– المحضن المؤسساتي: والمقصود به دولة المرابطين بجميع مؤسساتها، والتي كانت راعية وداعمة لأهل العلم مع احترامهم وإجلالهم وتقديمهم على غيرهم والإنصات إليهم.

وعلى كل، ساهمت هذه العوامل في تكوين القاضي عياض وظهر أثرها عليه في مختلف المجالات، فكان عابدًا، صوامًا قوامًا، زاهدًا منفقًا، عالمًا مجاهدًا، وحاز قصب السبق على أقرانه.

المطلب الرابع: طلبه للعلم

لقد تهيأت للقاضي عياض كما أسلفنا الذكر في المطلب الآنف كل الظروف المناسبة لطلب العلم والتبحر فيه، وهو أمر لا يتوفر غالبا إلا لآحاد من الناس، ولا يمكن للباحث خلال عرضه لهذا المطلب أن يغفل عن ذكر عامل آخر مهم،كلما توفر لأحد من الناس إلا وبلغ المنتهى في ميدانه، ألا وهو الإستعداد الفطري الذي منحه فطنة عالية وحافظة قوية وذهن ثاقب مع الحرص على طلب العلم، وقد لخص ذلك كله ولده محمد عند ذكر هذه المرحلة من حياة أبيه بقوله أنه كان: "موصوفًا بالنبل والفهم والحذق، طالبًا للعلم حريصًا عليه مجتهدًا فيه، معظَّمًا عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم والاختلاف إلى مجالسهم، إلى أن برع في زمانه وساد جملة أقرانه، وبلغ من التفنن في فنون العلم ما هو معلوم" (Ibn ʿIyāḍ, 1982).

المطلب الخامس: مؤلفاته

بلغ عدد مؤلفاته زهاء الثلاثين مصنفا على اختلاف بين المترجمين، وارتأيت أن أذكرها مبوبة على حسب موضوعاتها مع بعض بيان على حسب الحال.

1– في الحديث وعلومه:

– الشروح الحديثية: وله كتابان

أ– إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم **(**Ibn Khayr al-Ishbīlī, 2009**)**.

، والمعلم لشيخه الإمام المازري، وهو مطبوع وكثير بين أيدي الناس.

ب- شرح حديث أم زرع **(**Ibn Khayr al-Ishbīlī, 2009**)**، الموسوم ببغية الرائد لما تضمن حديث أم زرع من الفوائد، وهو موضوع هذه الدراسة.

- مصطلح الحديث: وله كتابان، أولهما على سبيل الاستقلال، وثانيهما على سبيل التبعية:

أ- الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع (Ibn ʻIyāḍ, 1982)، وهو أصل في بابه.

ب- مقدمة إكمال المعلم **(**Shawāṭ, 1999**)** ، بسط من خلالها كلام الإمام مسلم في مقدمته.

- شرح غريب الحديث: وله كتابان

أ- مشارق الأنوار على صحاح الآثار **(**Al-Dhahabī, 1999**)**، تصدى فيه لتفسير غريب الموطأ والبخاري ومسلم وهو من أقوم ما خلف القاضي عياض، وقد تركه في مبيضته وأخرجه بعده الطراز.

ب- غريب الشهاب**(**Ḥājjī Khalīfah, n.d**)**، وهو شرح لغريب ألفاظ أحاديث كتاب "شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب" لأبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، وللأسف الكتاب مفقود.

- التراجم والرجال: وله ستة كتب

أ- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك **(**Ḥājjī Khalīfah, n.d**)**. ويعتبر أكبر موسوعة في طبقات المالكية، وهو من آخر ما كتب القاضي، حتى أنه لم يسمعه للطلبة.

ب- المعجم في شيوخ ابن سكرة **(**Ibn Farḥūn, 1972**)**، ذكر فيه نحو مائتي شيخ، وهو مفقود.

ج- الغنية **(**Ibn Farḥūn, 1972**)**، وهي فهرسة شيوخ القاضي عياض، ذكر فيها نحو مائة شيخ.

د- أخبار القرطبيين **(**Ḥājjī Khalīfah, n.d**)**، ذكر فيه علماء قرطبة، عاصمة الأندلس، وهو مفقود.

هـ- جمهرة رواة مالك **(**ʻIyāḍ ibn Mūsá, 1983**)**، ذكر فيه حوالي ألف وثلاثمائة ترجمة، وهو مفقود.

2- السيرة: له كتابان

أ- اختصار كتاب شرف المصطفى **(**Ibn Khayr al-Ishbīlī, 2009**)** للخركوشي، وقيل اختصره قبل كتابة الشفا، ورواه عنه الناس، وهو مفقود.

ب- الشفا بتعريف حقوق المصطفى (Ibn Farḥūn, 1972)، وهو كتاب غني عن التعريف.

3- الفقه: وله سبعة كتب، لم يصلنا منها إلا كتابين فقط، والبقية في عداد المفقودة.

أ- التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة **(**ʻIyāḍ ibn Mūsá, 1983**)**، وهو المعول عليه في حل مشكلات المدونة وضبط ألفاظها.

ب- الإعلام بحدود قواعد الإسلام **(**ʻIyāḍ ibn Mūsá, 1983**)**، وهو كتيب صغير الحجم، كثير الفائدة، وقد شرحه أبو العباس القباب.

ج- أجوبة القرطبيين (Ibn ʻIyāḍ, 1982)، وهو مفقود

د- الأجوبة المحبرة عن المسائل المتخيرة (Ibn ʻIyāḍ, 1982)، وفي بعض المصادر الأجوبة المخبرة عن الأسئلة المحيرة، لم يتمه ولا يعرف له وجود الآن.

هـ- مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور(Ibn ʻIyāḍ, 1982)، وقد تركه القاضي في المبيضة، وهو مفقود الآن.

و- المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان (Ibn ʻIyāḍ, 1982)، وهو مفقود.

ز- نظم البرهان على صحة جزم الأذان (Ibn ʿIyāḍ, 1982)، وقد تركه القاضي في المبيضة، وهو مفقود الآن.

4- القضاء: وله أربعة كتب

أ- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام (Ibn ʿIyāḍ, 1982)، والكتاب الأصلي مفقود، ولكن وجد ولده محمد بعض البطاقات المكتوبة فضمها مع بعض فتاويه وأخرجها في سفر واحد.

ب- سر السراة في آداب القاضي (Ibn ʿIyāḍ, 1982)، وهو مفقود.

ج- مطامح الأفهام في شرح الأحكام **(**Bābānī, 1951**)**، وهو مفقود.

د- نوازل الحضانة **(**Waraglī, 1994**)**، وهو تأليف مستقل، استوعب فيه القاضي جميع فصولها، وهو مفقود.

5- العقيدة: وله كتابان:

أ- السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول **(**Bābānī, 1951**)**، وهو مفقود.

ب- كتاب العقيدة **(**Bābānī, 1951**)**، مخطوط وعليه شرح بالقول.

6- اللغة والآداب: وله ثلاثة كتب:

أ- غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدر والترسيل (Ibn ʿIyāḍ, 1982)، لم يكمله، وهو مفقود.

ب- سؤالات وترسيل **(**Maqqarī, 1939**)**، وهو مفقود.

ج- كتاب خطبه (Ibn ʿIyāḍ, 1982)، اشتمل على نحو خمسين خطبة من إنشاء القاضي، حيث كان لا يخطب إلا من تأليفه، وقد عُثر على بعضها في بعض مكتبات المغرب.

د- ديوان شعره **(**Waraglī, 1994**)**، وقد ذكر مترجموه بعضا منه، وهو مفقود.

7- التاريخ: وله ثلاثة كتب

أ- تاريخ المرابطين **(**Maqqarī, 1939**)**، انتهى فيه إلى سنة 540 هـ، وهو مفقود.

ب- الجامع في التاريخ **(**Bābānī, 1951**)**، وهو من أربي مؤلفاته وأكبرها، وهو مفقود.

ج- الفنون الستة في أخبار سبتة **(**Bābānī, 1951**)**، وعند بعضهم العيون الستة في أخبار سبتة، وهو مفقود.

هذا ما تيسر جمعه من مؤلفاته، ونسأل من الله أن يعثرنا على المفقود من كتبه.

المطلب السادس: ثناء العلماء عليه

لا شك أن شخصية كشخصية القاضي عياض تستحق الثناء والشكر والتقدير، نظرًا لما تميز به من أدب ودماثة أخلاق وحسن معاشرة من جهة، ولجهوده العلمية والإجتماعية والسياسية وما أنجزه لفائدة أمته وإسلامه، وقد حفر اسمه على بنيان ذاكرة هذه الأمة، حتى قيل، لولا عياض ما عرف المغرب.

وسأقتصر على نقل مقتطفات من بعض التراجم لأهل العلم من المغاربة والمشارقة.

قال الحافظ ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي **(**Ibn al-Abbār, 1989**)** : "وبالجملة فكان جمال العصر، ومفخر الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عدت رجالات المغرب فضلاً عن الأندلس، حسب فيهم صدرًا. وله تواليف مفيدة كتبها الناس وانتفعوا بها وكثر استعمال كل طائفة لها".

وقال العلامة ابن فرحون في الديباج المذهب**(**Ibn Farḥūn, 1972**)**: "كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه، فقيها أصوليا، عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرًا بالأحكام، عاقدًا للشروط، حافظًا لمذهب مالك رحمه الله، شاعرًا مجيدًا، ريانًا من الأدب، خطيبًا بليغًا، صبورًا حليمًا، جميل العشرة، جوادًا كريمًا، كثير الصدقة، دؤوبًا على العمل، صلبًا في الحق".

وقال الإمام الذهبي (Al-Dhahabī, 1999): "الإمام العلامة، الحافظ الأوحد، شيخ الإسلام القاضي أبو الفضل عياض... واستبحر في العلوم وجمع وألف وسارت بتصانيفه الركبان واشتهر اسمه في الآفاق".

وقال ابن العماد في شذرات الذهب (Ibn al-'Imād, 1986): "وبالجملة فإنه كان عديم النظير، حسنة من حسنات الأيام، شديد التعصب للسنة والتمسك بها".

المطلب السابع: وفاته

يوم الجمعة، السابع من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية، الموافق ل 14- أكتوبر- 1149 م توفي القاضي عياض بعد ثمانية أيام من التوعك، ودفن بباب أيلان داخل سور مدينة مراكش (Ibn Farḥūn, 1972).

ولم يخالف هذا التاريخ إلا ولده محمد بقوله: "ثم مات- عفا الله عنه- ليلة الجمعة التاسعة من جمادى الآخرة" (Ibn ʻIyāḍ, 1982).

المبحث الثاني: منهج القاضي عياض في شرحه "بغية الرائد لما تضمن حديث أم زرع من الفوائد"

المطلب الأول: سبب تأليف الكتاب، وشرح العنوان

- سبب تأليف الكتاب

ذكر القاضي سبب تأليفه للكتاب، مصرحًا بأنه نزول عند رغبة أحد السائلين، دون أن يتعرض لشخصه أو هويته، لا تلميحًا، ولا تعريضًا، ولا تصريحًا، وإنما اكتفى بالقول في بداية خطبة الكتاب (ʻIyāḍ ibn Mūsá. n.d): "وقفت أدام الله توفيقك ونهج لمهيع الحق طريقك على ما سألت عنه من حديث أم زرع وتعيين مشكل معانيه وأغراضه، وفتح

مقفل غريبه وألفاظه، فاستعنت بالله على إجابتك، واستمددته التوفيق إلى الصواب من قصد إرادتك".

والملاحظ، أن أغلب مطبوع مصنفات القاضي، تصدر بطلب أو سؤال فردي أو جماعي، ويقوم القاضي بتلبية تلك الرغبة، وكأنه لا يصنف ابتداءً، بل استجابة لمطالب الناس، وخدمة لهم.

ووجهه عندي، أن القاضي لقربه من طلبة العلم، ومخالطته العامة، مع اعتقادهم صحة ديانته، وغزارة علمه، فإنهم لا يتحرجون من إظهار رغباتهم أمامه، ليزيل ما أشكل عليهم، ويتحفهم بتحقيقات، قلما يجدونها مبسوطة حتى في أمهات الكتب، ولذلك كثر استعمال كل طائفة لكتبه، كما أشرنا لذلك سلفًا.

وهناك وجه آخر، وهو أن القاضي ليبعد نفسه عن السمعة والرياء والشهرة، اختار هذه الطريقة، ليخرج من حظ نفسه، ويكون للإخلاص في تأليفه أقرب، وكما هو معلوم، فهذا باب معروف عند أهل رياضة النفوس، وعلاقة القاضي بأرباب هذه الصناعة، لا تخفى، ولذلك قال في خاتمة شرحه: "والرغبة في غفران المباهاة في القول والعمل" **(**ʿIyāḍ ibn Mūsá. n.d**)**.

– شرح عنوان الكتاب

ارتأى الباحث، في هذا المطلب، شرح العنوان؛ لأن للقدماء فيه طريقة، خاصة بهم، حيث يكثر عندهم السجع في تسمية مؤلفاتهم، ومن خلاله أيضًا، يمكن فهم الموضوع، والمنهجية المتبعة في التأليف، وعليه، فالكلام سيكون على جزئين، شرح لغوي لمفردات العنوان، ثم شرح العنوان من جهة المعنى.

أ– الشرح اللغوي لمفردات العنوان:

بغية: الحاجة كما قال الفارابي في الصحاح **(**Jawharī, 1990**)**، وفي اللسان **(**Ibn Manẓūr, 1440**)**، الحاجة المبغية، وزاد في تاج العروس **(**Al-Zabīdī,

(1965 فقال: "البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى، تجاوزه أم لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدر، الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصف، الذي هو الكيفية".

الرائد: أصله من الرود وهو التردد في طلب الشيء برفق، ومنه الرائد لطالب الكلأ، كذا في التوقيف على مهمات التعاريف (Ibn Al-Munāwī, 1990)، وفي جمهرة اللغة (Ibn Durayd, 1987): "الرائد طالب الكلأ، ثم صار كل طالب حاجة رائدًا"، وفي لسان العرب (Ibn Manẓūr, 1440) من حديث علي رضي الله عنه في صفة الصحابة رضي الله عنهم: "يدخلون روادًا ويخرجون أدلة"، أي يدخلون طالبين للعلم، ملتمسين للحلم من عنده، ويخرجون أدلة هداة للناس.

تضمن: قال في لسان العرب (Ibn Manẓūr, 1440): "ضمّن الشيء الشيء: أودعه إياه، كما تودع الوعاء المتاع، والميت القبر... وكل شيء جعلته في وعاء فقد ضمنته إياه، وأنشدوا عليه:" كما تضمن كشح الحرة الحبلا".

الفوائد: جمع فائدة، قال في المصباح المنير (Fayyūmī, 1987): "الزيادة تحصل للإنسان"، وقال في لسان العرب (Ibn Manẓūr, 1440): "ما استفدته من علم أو مال".

ب– شرح معنى العنوان:

لما كانت رغبة السائل، متعلقة بتفسير ما أشكل من معاني الحديث، وبيان مقاصده، وما يتجه فيه من معنى، وشرح الألفاظ الغريبة، ليسهل فهمه، أجابه القاضي من خلال العنوان، قائلاً: "أيها المتردد في الطلب برفق، هذه بغيتك، أي حاجتك وحاجة من ورائك، وقد جاوزت الاقتصاد في تحريها كما وكيفا، فزدت أشياء لم تكن من مطلوباتك، والحال أنها مودعة في حديث أم زرع، فتحصلت لك ولهم الزيادة من علوم شتى، ومعارف مختلفة".

هذا، وفيه إشارة واضحة من القاضي، لأهمية الأدب عند الطلب، وفيه تصريح بأن على العالم استفراغ الجهد في بيان المسائل، وتجاوز المطلوب، إذا كان فيه فائدة للسائل.

المطلب الثاني: منهج القاضي عياض في الكتاب

نظرًا لأهمية هذا المبحث، رأى الباحث أن يناقشه في مطلبين، منفصلين، الأول لعرض المنهج العام للقاضي في الكتاب، والثاني للكلام عن المنهج الخاص الذي أنشأه القاضي من خلال هذا الشرح، وبه حاز قصب السبق على سلفه.

أولا: المنهج العام

لقد كفى القاضي عياض، الباحثين، مؤونة البحث والتقصي، عن منهجه الذي انتهجه في التعامل مع حديث أم زرع، فرسم الخطوط العريضة لطريقة عمله في الكتاب، حيث صرح في بداية خطبته قائلاً (‘Iyāḍ ibn Mūsá. n.d): "ورأينا أن نبتدئ بالحديث وسياق متنه، مع اختلاف ألفاظ نقلته، وزيادة بعضهم على بعض في سرده، ثم نذكر بعد ذلك علة إسناده، وشرح غريبه، وعويص إعرابه، ومعاني فصوله، وما يتعلق به من فقه، وتنقدح منه من فائدة، ويتجه فيه من وجه".

وبالتالي، كان منهجه مرتبا وفق الخطوات الآتية:

1- ذكر أسانيده في الحديث: ورغم كثرة طرق أسانيد القاضي وتشعبها، في هذا الحديث، إلا أنه اختار أشهرها، عن أئمة شيوخه.

2- ذكر متن الحديث: مع بيان اختلاف ألفاظ الرواة، وذكر الزيادات التي وقعت لبعضهم، ومرة أخرى، يقوم بعملية انتقاء، فقال (Ibn Manẓūr, 1440):" فجئنا بأكملها رواية، وأحسنها سياقة"، وأما ما يخص الزيادات، فقال بشأنها (Ibn Manẓūr, 1440): "وثم زيادات من غير الطرق التي ذكرناها، جلبنا بعضها، ونبهنا على ما أمكن منها".

3- ذكر علل السند: وهو باب مهم، حيث بحث القاضي من خلاله المقدار المرفوع من الحديث، وخلص إلى ترجيح ما ذهب إليه الدارقطني والخطيب البغدادي.

4- شرح الغريب: وهو باب مهم، ويُعنى بالألفاظ القليلة الاستعمال، وليست مشهورة، فتحتاج إلى شرح، وهو ما فعله القاضي، ثم استشهد لها، وبين معانيها.

5- العربية: والمقصود به، علمي الصرف والنحو، وقد أعرب القاضي ما يحتاج إلى إعراب، ورجح ما يراه في مسائل كثيرة، وكذلك ناقش بعض الأوزان الصرفية، وكعادته رجح ما يراه صوابًا، وقد خرج نحوا من عشرين مسألة في هذا الباب، وغالبًا ما يعنون لها بقوله: "تنبيه"، كما اخترع مصطلح "نادر"، لما لم يطرد، لغة أو وزنًا.

6- الفقه: وذلك باستخراج أو استنباط المسائل من نفس الحديث، أو من المسائل التي تطرق إليها أثناء شرحه، وقد خرج نحوًا من عشرين مسألة فقهية.

7- المعاني: وذلك بشرح معاني كلامهن، وبيان أنه ذم أو مدح لأزواجهن، ووجه كذلك، كلام من سبقه، فأيد بعضهم، وخالف بعضهم، بناء على ما توصل إليه، باستخدام كل الآليات السابقة الذكر، كما استغل الفرص، ليبث ما تيسر من الفوائد، من مضامين علمية مختلفة.

8- البلاغة وما يتصل بها من بديع ومعاني: وقد أخره القاضي إلى آخر الكتاب، ليستوعبه بالبحث والتقصي، ويتجنب التكرار والتطويل، وقد اخترع مصطلحًا جديدًا سماه "بيان"، وكعادته، ناقش، ورجح، واستدل، وانتقد، بدون عصبية أو هوى، فذكر ما في كلامهن من بديع الكلام، وأسرار الفصاحة، وغريب التراكيب.

وقد التزم القاضي هذا المنهج في كل الكتاب، ولم يحد عنه، مع ما نثره من الفوائد المختلفة، والتحقيقات الفريدة، ما يغني عن مراجعة المطولات.

ثانيا: المنهج الخاص

ما يرغب الباحث في إثارته هنا، أن القاضي، ومن خلال شرح حديث أم زرع، كان يؤسس لمنهج خاص به، متطور، لم يُسبق إليه، يتسم بالشمولية والتكامل، ويمتاز برؤية نقدية تحليلية متعددة الجوانب، حيث إنه تعامل مع نص الحديث كخطاب ذو أبعاد مختلفة

ومتعددة، فأخذ بعين الاعتبار البعد الديني، والبعد الأدبي الجمالي، وكذلك البعد الإخباري التاريخي، دون أن ينسى البعد الاجتماعي، وحتى البعد السيكولوجي، كان له حضور.

وقد لفت نظر القراء والباحثين، إلى نقطة مهمة، حين قال (ʻIyāḍ ibn Mūsá. n.d): "وطرقنا في هذا الحديث كثيرة متشعبة، ...، فجئنا بأكملها رواية، وأحسنها سياقًا، ...، مما يفيد فائدة، أو يزيد فقرة شاردة، وثم زيادات من غير الطرق التي ذكرناها، جلبنا بعضها، ونبهنا على ما أمكن منها"، فأخبر رحمه الله أنه سينتقي من مخزونه المعرفي ما يفي بغرض الشرح، ويخدم منهجه الذي يرغب في سلوكه، وهي إشارة لم ينكشف نقابها إلا في آخر الكتاب، لما قال (Ibn Manẓūr, 1440): "وقد احتوى على جمل من فنون حسان، وفقر من ضروب الأدب غراب، وخرجنا فيه نحو عشرين مسألة من الفقه، ومثلها من العربية، مع كثرة ما ذكرنا فيه من كلام الشارحين وأصحاب المعاني، وترجيح الصواب، وتوليد كثير مما لم يتقدم فيه كلام بلغه علمي، وانتهى إليه ذكري".

فكأن القاضي، صاحب الفكر الموسوم بالمعرفة الموسوعية، وخير دليل على ذلك اقتباساته واستشهاداته التي كانت تنتمي إلى جل الحقول المعرفية، يبحث عن تأسيس منهج يُمكّنه من إفراغ كل معارفه الدينية واللغوية والبلاغية، ويمزج بطريقة ما، بين النظري والتطبيقي في باب البلاغة خاصة، ومن هنا اكتسب شرحه لحديث أم زرع كل التقدير والإعجاب، لأنه جمع مناهج المدارس الحديثية، وطبّق معالمها من خلال هذا الشرح، وكذلك مناهج المدارس الأدبية النقدية، مع ترجيحه لكثير من المسائل المختلف فيها في المصطلح، أو في علوم العربية، وتحقيقات لم يسبق إليها.

وهذا أوان ذكر المناهج التي جمعها القاضي في كتابه، واستخدم آلياتها واستفاد منها في شرحه:

أ- منهج المحدثين: ويُعنى بدراسة السند ومتن الحديث، وقد استخدمه القاضي في بداية شرحه، بحرفية بالغة كما أشار سابقًا، وانتقى أحسن الروايات التي تضفي فائدة

أو تزيد معنى، كما رجح القدر المرفوع من الحديث وبيّن أن باقيه من كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ب- منهج الفقهاء: ويُعنى باستنباط الأحكام في المسائل الفقهية، وقد استخدمه القاضي في ذكر كم هائل من المسائل الفقهية في أبواب شتى، حتى ذكر أحكام الشهادة والعدالة، في تحقيق لم يسبق إليه.

ج- منهج اللغويين: ويُعنى بشرح مفردات اللغة وبيان صيغها والصحيح منها، وقد استخدمه القاضي لشرح غريب الألفاظ، وتوجيه مدلول الألفاظ لما يُقيم المعنى.

د- منهج النحويين: ويُعنى بأوجه إعراب اللفظ وبيان مشكل التركيب اللغوي من حيث الوضع والاستعمال، والأمثلة عليه كثيرة في طيّات الكتاب، وكذلك المسائل الصرفية، كان لها حيّز كبير، وناقش القاضي كثيرًا من المسائل، حتى أنه ابتكر مصطلح "نادر" لما لم يطرد في باب الأوزان الصرفية.

هـ- منهج الأدباء والبلاغيين والنقاد: ويُعنى بفهم معنى النصوص واستخلاص ما فيها من وجوه البيان والفصاحة والبلاغة وتفضيل نصّ على آخر أو لفظة على أخرى، اعتبارًا بمقاييس الجودة والرداءة، وقد خصص له القاضي فصلا كاملا آخر الكتاب.

و- منهج المؤرخين: ويُعنى بربط النصوص بالأحداث أو الشخصيات التي يؤرخون لها وبيان تفاعلها معها، وهو ما قام به القاضي، عندما تقصّى أسماء النسوة، ونسبهن، وكذلك بحثه عن أنساب الخيل العربية المشهورة.

ي- منهج علماء الإجتماع: ويُعنى بدراسة السلوك والتفاعل الإنساني والذي يظهر في علاقة الأفراد بعضهم ببعض، وقد اهتمّ القاضي بذلك وأشار إليه، كما في شرحه قول الثانية والثالثة والرابعة مثلا، فتكلم عن تعقد النفس، وعلاقة الحب، واعتدال الحال الظاهرة.

وهكذا، تأسس منهج جديد لدراسة الحديث الشريف، يقوم على ثلاث أثافي رئيسية:

أ– التحقق من النص: لأنه نص شرعي مقدس، تنبني عليه أحكام، وتستخرج منه مسائل، فكان لزامًا على الباحث فيه، أن يتحقق من مصداقية الخبر.

ب– نصية النص: ويعرف بأدبية النص، ويتمثل في اختراق النسيج اللغوي للنص، للوقوف على ركنه الأعظم، وهي الكلمة، في حالتي الإفراد والتركيب، ومن ثم نقده، وتحليله، على ثلاث مستويات، نحوية، صرفية ومعجمية.

ج– مضمون النص: ويتمثل في تحليل الشبكة البنائية للنص، ورصد دلالاته، واستخراج مضامينه المختلفة، سواء فقهية، أو أدبية، أو بلاغية.

ولكن لعسر تحصيل آليات ومتطلبات هذا المنهج، لم ينهجه من جاء بعد القاضي عياض، لأنّه يتطلب معرفة موسوعية، مع ذوق رفيع، وملكة أدبية، ولولا ذلك لامتلأت المكتبات الإسلامية بأبحاث نقدية لدراسة أساليب القرآن والحديث، تعيد للبلاغة العربية شبابها ونضارتها.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة استطاع الباحث التوصل إلى نتائج أهمها ما يلي:

1- تحقيق صحة نسبة الكتاب للمؤلف، وأنه من باكورات أعماله.
2- تحقيق أن القاضي، كان يؤسس منهجًا علميًّا جديدًا، يتسم بالشمولية والتكامل.
3- منهجية القاضي في شرحه التي تعتبر من أبرز النتائج.
4- تحقيقات فريدة للقاضي: لقد أتحفنا القاضي، رحمه الله، بتحقيقات فريدة، في عدة ميادين علمية، سواء كانت لغوية معجمية، أو نحوية، أو صرفية، كما شملت الميدان الفقهي، والحديثي.
5- البراعة البلاغية، حيث أبدع القاضي في هذا الباب، وكشف عن ذوق رفيع، وفهم ثاقب لمختلف المسائل البلاغية، وتمكن من المصطلحات الفنية لهذا

الفن، ويعتبر مبحثه الموسوم بـ"بيان"، أيقونة حقيقية، حاز بها قصب السبق في هذا المضمار.

References

Al-Dhahabī, Muḥammad ibn Aḥmad Ibn ‘Uthmān. 1985. *Siyar a‘lām al-nubalā’*. Bayrūt. Mu’assasat al-Risālah.

Al-Zabīdī, Muḥammad Murtaḍá. 1965. *Tāj al-‘arūs min jawāhir al-Qāmūs.* Al-Kuwayt. Maṭba‘at Hukūmat al-Kuwayt.

Bābānī, Ismā'īl ibn Muḥammad Amīn al-Baghdādī. 1951. *Hadīyat al-'ārifīn asmā' al-mu'allifīn wa-āthār al-muṣannifīn.* Istānbūl. Maṭba‘at Wikālat al-Ma‘ārif.

Fayyūmī, Aḥmad ibn Muḥammad. 1987. *Al-miṣbāḥ al-munīr fī gharīb al-sharḥ al-kabīr lil-Rāfi‘ī.* Bayrūt : Maktabat Lubnān.

Ḥājjī Khalīfah, Muṣṭafá ibn ‘Abd Allāh al-Qusṭanṭinī al-Rūmī al-Ḥanīfī al-shahīr bi-al-Mullā Kātib al-Jalabī. n.d. *Kashf al-ẓunūn ‘an asāmī al-kutub wa-al-funūn.* Bayrūt. Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī.

Ibn al-Abbār, Muḥammad ibn ‘Abd Allāh al-Quḍā‘ī al-Balansī. 1989. *Al-mu‘ğam fī aṣḥaāb al-Qāḍī al-Ṣadafī.* Al-Qāhirah. Dār al-Kitāb al-Miṣrī. Bayrūt. Dār al-Kitāb al-Lubnānī.

Ibn al-Atheer, Abu al-Hasan al-'Izz al-Din Ali ibn Abi al-Karam. 2003. *Al-Kāmil fī Al-tārīkh*. Bayrūt. Dār al-Kutub al-ʿilmīya.

Ibn al-'Imād, Abū al-Falāḥ 'Abd al-Ḥayy ibn Aḥmad ibn Muḥammad al-Dimashqī. 1986. *Shadharāt al-dhahab fī akhbār man dhahab.* Dimashq. Bayrūt. Dār Ibn Kathīr.

Ibn Al-Munāwī, ‘Abd al-Ra’ūf. 1990. *Al-tawqīf ‘alá muhimmāt al-ta‘ārīf.* al-Qāhirah. ‘Ālam al-kutub.

Ibn al-Qāḍī ‘Iyāḍ, Muḥammad. 1982. *al-Ta‘rīf bi-al-Qāḍī ‘Iyāḍ.* Al-Maghrib. Matba'ah Fadhalah.

Ibn-Baškuwāl, Ḫalaf Ibn-ʻAbd-al-Malik. 1989. *Kitāb al-Sila.* al-Qāhirah. Dār al-Kitāb al-Miṣrī, Bayrūt. Dār al-Kitāb al-Lubnānī.

Ibn Durayd, Abū Bakr Muḥammad ibn al-Ḥasan ibn Durayd al-Baṣrī. 1987. *Jamharat al-lughah*. Bayrūt. Dār al-ʻIlm li-al-Malāyīn.

Ibn Farḥūn, Ibrāhīm ibn ʻAlī ibn Muḥammad. 1972. Al-*Dībāj al-mudhahhab fī maʻrifat aʻyān ʻulamā' al-madhhab*. Al-Qāhirah. Dār al-Turāth.

Ibn Khayr al-Ishbīlī, Abū Bakr Muḥammad ibn Khayr ibn 'Umar. 2009. *Fahrasat Ibn Khayr al-Ishbīlī*. Bayrūt. Dār al-Gharb al-Islāmī.

Ibn Manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram. 1440. *Lisān al-ʻArab*. Bayrut. Dar sadir.

ʻIyāḍ ibn Mūsá. 1983. *Tartīb al-madārik wa-taqrīb al-masālik li-maʻrifat aʻlām madhab Mālik.* Al-Maghrib. Maṭbaʻat Faḍālah.

ʻIyāḍ ibn Mūsá. n.d. *Bughyat al-rāid fī-mā fī ḥadīth Umm Zarʻ min al-fawāid.* Makhṭūṭ Amaktabah Al-Waṭanīyah. Tūnes. no: 1409.

Jawharī, Ismāʻīl ibn Ḥammād. 1990. *Tāj al-lughah wa-ṣiḥāḥ al-ʻArabīyah, al-musammá. al-Ṣiḥāḥ*. Bayrūt. Dār al-ʻIlm li-al-Malāyīn.

Maqqarī, Aḥmad ibn Muḥammad. 1939. *Azhār al-riyāḍ fī akhbār ʻIyāḍ.* Al-Qāhirah. Lajnat al-ta'līf wa-al-Tarjamah wa-al-Nashr.

Shawāṭ, al-Ḥusayn ibn Muḥammad. 1999. *Al-Qāḍī ʻIyāḍ, ʻālim al-Maghrib wa-imām ahl al-Ḥadīth fī waqtih*. Dimashq. Dār al-Qalam.

Waraglī, Ḥasan. 1994. *Abū al-Faḍl al-Qāḍī ʻAyyāḍ al-Sabtī : thabat bibliyūjrāfī.* Bayrūt. Dār al-Gharb al-Islāmī.